البحوث التطبيقية في السنّة النبوية الشريفة وعلاقتها بالمحيط الاجتماعي

الدكتور مختار نصيرة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة

أولا - تعريف الحديث الموضوعي:

هو عبارة عن جمع الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد مع محاولة تصنيفها ودراستها، مع التركيز على التأليف بين المتعارضات إن وجدت تارة بالجمع، وتارة بالترجيح.

والبحث الموضوعي محاولة جادة لصياغة جانب من جوانب المفاهيم المعرفية في قالب متكامل من حيث التحقيق، والاستقصاء، وعرض القضايا ومناقشتها في ضوء السنّة النبوية الشريفة، ونحن في أمسّ الحاجة إلى البحث بهذا التصور المنهجي، لا سيما في هذا العصر الذي تفتقر فيه الأمّة إلى حلول جادة لمشكلاتها التي تتخبط فيها ردحا من الزمن. ومن البديهي أن القضية التي تبحث مدعّمة بالأدلة مستوفية عناصر التحقيق العلمي أدعى للقبول والتسليم بمقتضياتها من تلك القضية التي تعالج بطريقة مرتجلة بعيدة كلّ البعد عن المنطق السّديد، والتحقيق المفيد. [1]

لذا كان علينا أن نّضع نصب أعيننا قواعد البحث وأصوله الصحيحة حتى نسير في الطريق السليم لكتابة أبحاثنا الحديثية لتصل إلى درجة الإقناع بالأسلوب العلمي المبني على أساس من الأدلة النقلية والعقلية.

ثانيا- نشأة الحديث الموضوعي:

1 . كانت بداية ظهور هذا اللّون من البحث في السنّة النبوية مع بداية القرن الأول الهجري، حين ألف الإمام الشعبي عامر بن شراحبيل (ت101 هـ) رسالة في باب الطلاق (أحاديث الطلاق.

2 - ثم تتابع التأليف في (ق2 هـ)

فألف سعيد بن كثير بن عفير، متوفي سنة(146 هـ) كتابه الجامع.

وألف الإمام مالك كتابه مالك الموطأ سنة (179 هـ)، وتبعه في ذلك أصحاب الكتب الستّة، وكثير ممن جاء بعدهم.

ثالثا - فوائد وثمرات دراسة الحديث الموضوعي:

1 - تسهيل طريق وصول الناس إلى هدي الحديث النبوي، وأخذ حاجاتهم دون مشقّة أو عناء.

2 - إظهار أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان لديه منهاج متكامل لبناء الحياة في جميع جوانبها.

3 - محاولة ردّ الشبهات حول الحديث النبوي، وخاصة ممّن يدّعي التعارض والتناقض بين المتون، وذلك بالجمع أو الترجيح بينها.

رابعا - الدور المأمول لهذه الدّراسات في المحيط الاجتماعي والأسري:

إنّ السنّة النبوية الشريفة لم تحفظ لتدون وتقرأ تبرّكا، وتحفظ في أدراج ورفوف المكتبات الخاصة والعامة، وإنمّا حفظها الله تعالى لتكون منهج حياة ننهل منها ما يسعد أمّتنا في الدّارين، ولم يكن المجتمع الرّباني الأول ليكون أنموذجا للبشرية لولا الوحي الإلهي.

والمجتمعات البشرية بأحوالها المختلفة: الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، بحاجة ماسّة إلى مناهج جادّة تصلح أحوالها وتضمن لها الاستمرارية. وكلما كان المنهج صالحا كان أثره صالحا، فصلاح البشرية بصلاح مناهجها.

والسنّة النبوية من خلال تقديمها وبسطها بمنهج موضوعي يراعي وحدة الموضوع، بأسلوب يتناسب مع نوع الموضوع المحدد وشكله، يكون له أثره البالغ في المحيط الاجتماعي، إذا وجد صاحب النيّة الصادقة في البحث عن الحلول النّاجعة للمشكلات المطروحة.

والبحوث الأكاديمية المتخصّصة، التي تعنى بطرح المشكلات الاجتماعية، والبحث لها عن حلول مناسبة، بالمنهج الموضوعي في السنّة النبوية، كفيلة بمعالجة ما يعانيه أفراد المجتمع من نواح عدة، **لكن بشروط**:

- وجود الباحث الكفء المناسب للموضوع المدروس: فقد يكون الباحث غير كفء، أو كفؤا، لكنّه لغير الموضوع المدروس، فتترتب عليه نتائج غير مرضية في نهاية الدراسة.
- وجود الشريك الاجتماعي: هناك جوانب كثيرة قد لا يتنبه لها الباحثون في دراساتهم ومعالجتهم لظاهرة معيّنة، فيتطلب ذلك الاستعانة بمتخصصين اجتماعيين، لتتكامل الدّراسة، ويعالج الموضوع من جميع زواياه.
- وجود أفراد أو هيئات اجتماعية، تكون لها المبادرة الكافية، والنّية الصادقة، في الأخذ بنتائج الدراسات الموضوعية، وتوصيات الباحثين، ومحاولة تطبيقها شيئا فشيئا في معالجة المشكلة المطروحة.

ولهذا فالعلاقة بين المحيط الاجتماعي والبحث الموضوعي في السنّة النبوية بصفة خاصة، والعلوم الإسلامية بصفة عامة، حتى تؤتي أكلها لابدّ لها من معادلة ثلاثية الأطراف:

1 - الباحث المتمكن، 2 - والشريك الإجتماعي، 3 - (والمشكلة المراد علاجها، والحل المناسب من خلال الدراسة الموضوعية الوافية) يمثلان الموضوع المفيد.

خامسا - نماذج من الدّراسات الواقعية من خلال الرسائل الجامعية:

1 – كفالة الأيتام والأرامل في ضوء السنّة النبوية – تخريج ودراسة:

مذكرة ماجستير في الكتاب والسنّة للباحث نبيل زيّاني، نوقشت بتاريخ 2003/07/20م.

أبرز الباحث في مستهل بحثه القضايا والمشكلات التي يعاني منها المجتمع وفتكت ببنيته، والتي في مقدّمتها مشكلة الفقر والحرمان.

فأراد الباحث المشاركة في معالجة مشكلة الفقر والحرمان بهذه الدراسة العلمية التي خصصها لفئة الأيتام والأرامل التي فقدت نصرة القيّم والكفيل. (2)

فهذا البحث قدّم علاجا ونفعا يخدم المجتمع، لو أخذ به القائمون عليه، ما عرف اليتيم والأرملة البؤس إلاّ ثلاثة أيام. (3)

واختيار الباحث منهج الحديث الموضوعي في هذه الدراسة، لتلاؤمه مع إبراز الحلول الناجعة لهذه الفئة من منظور السنّة النبوية.

إذ بجمع أحاديث هذا الباب من مصادر السنّة، وترتيبها، وتخريجها، وتحليلها ودراستها، تتشكل لنا دراسة متكاملة الجوانب لمعالجة القضايا المطروحة في المحيط الاجتماعي.

ولو نظرنا إلى الاستفهامات التي طرحت في هذا البحث، وما تتطلبه من حلول، لوجدناها كلها ذات علاقة بمحيطنا الاجتماعي، وتعالج زاوية من زوايا مشكلاته العويصة. (4)

فالبحث يدور حول أسباب ظاهرة بؤس الأيتام والأرامل وفقرهم في المجتمع، وعلاجها ماديّا ومعنويا.

وفي مقابل ذلك قام الباحث بدراسة نماذج لمراكز تكفل الأيتام والأرامل، وشكل كفالتهم، وتربيتهم، والنفقات عليهم، والقوانين المنظمة لذلك.

خامسا - نماذج من الدّراسات الواقعية من خلال الرسائل الجامعية:

1 – كفالة الأيتام والأرامل في ضوء السنّة النبوية – تخريج ودراسة:

مذكرة ماجستير في الكتاب والسنّة للباحث نبيل زيّاني، نوقشت بتاريخ 2003/07/20م.

أبرز الباحث في مستهل بحثه القضايا والمشكلات التي يعاني منها المجتمع وفتكت ببنيته، والتي في مقدّمتها مشكلة الفقر والحرمان.

فأراد الباحث المشاركة في معالجة مشكلة الفقر والحرمان بهذه الدراسة العلمية التي خصصها لفئة الأيتام والأرامل التي فقدت نصرة القيّم والكفيل. (2)

فهذا البحث قدّم علاجا ونفعا يخدم المجتمع، لو أخذ به القائمون عليه، ما عرف اليتيم والأرملة البؤس إلاّ ثلاثة أيام. (3)

واختيار الباحث منهج الحديث الموضوعي في هذه الدراسة، لتلاؤمه مع إبراز الحلول الناجعة لهذه الفئة من منظور السنّة النبوية.

إذ بجمع أحاديث هذا الباب من مصادر السنّة، وترتيبها، وتخريجها، وتحليلها ودراستها، تتشكل لنا دراسة متكاملة الجوانب لمعالجة القضايا المطروحة في المحيط الاجتماعي.

ولو نظرنا إلى الاستفهامات التي طرحت في هذا البحث، وما تتطلبه من حلول، لوجدناها كلها ذات علاقة بمحيطنا الاجتماعي، وتعالج زاوية من زوايا مشكلاته العويصة. (4)

فالبحث يدور حول أسباب ظاهرة بؤس الأيتام والأرامل وفقرهم في المجتمع، وعلاجها ماديّا ومعنويا.

وفي مقابل ذلك قام الباحث بدراسة نماذج لمراكز تكفل الأيتام والأرامل، وشكل كفالتهم، وتربيتهم، والنفقات عليهم، والقوانين المنظمة لذلك.

وبين معاناة هذه الفئة في ظل النقائص المادية المعنوية في هذه المراكز. وقارن بين هذا الوضع وبين تصور السنّة النّبوية الشريفة لهذه الفئة وكيفية العناية بها بما كفل لها شرعا. [5]

فبين أنّ القوانين الوضعية تفتقر إلى الجانب الرّوحي، فلم تستطع تهذيب نفوس هذه الفئة وترويضها على الرضا والطمأنينة، ولا صون عقائدهم عن خطر التبديل، ولا صقلت أيديهم على شيء من الصنائع والحرف تعينهم على القيام بشؤونهم بعد الخروج من مراكز الرّعاية. [6]

ففلسفة الكفالة في القوانين الوضعية معتمدة أساسا على النظرة المادية، بعيدة عن مفهوم الكفالة في السنّة النبوية الذي ينظر فيه إلى الجانبين المادي والروحي معا. [7]

2 – تفرق الأمة والتحذير منه في ضوء السنّة – دراسة وتحقيق:

مذكرة ماجستير في الكتاب والسنّة للباحثة حدّة عاشوري، نوقشت بكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية بباتنة.

أبرزت الباحثة أهميةَ بحثها وعلاقتَه بالمحيط الاجتماعي، من حيث معالجته لظاهرة طالما نخرت وَحدة الأمة وشتت جمعها، ظاهرة التفرق الذي عانت منه الأمّة كثير منذ قرون عديدة.

فهذه العلّة (كما ترى صاحبة البحث) أصابت أهل الكتاب فأهلكتهم، فجاء التحذير منها على لسان النّبي صلى الله عليه وسلم. [8]

فالباحثة تناولت حقيقة الافتراق وأسبابه وعلاجه، مقتفية في ذلك منهج الحديث الموضوعي، وهو منهج يقوم على الاستقراء ، ثم التحليل، ثم التركيب، وبعدها الاستنباط. [9]

وقسّمت أهدافها إلى خاصة وعامة. فالخاصّة: محاولة طرح الانعكاسات والنتائج التي يخلفها هذا الموضوع المهم بغرض معالجتها.

والأهداف العامة: تطبيق منهج الحديث الموضوعي الذي يعتبر وسيلة لتحريك تراث السلف ليواكب العصر، ويوظف في الإجابة عن الأسئلة الراهنة، فلا قيمة لهذا الحمل إن لم يقدّم حلا لمشكلة، أو جوابا لمطلوب. [10]

وترى الباحثة أن بحثها أثمر نتائج تمثلت في تحديد الدّاء والدّواء معا لعلّة افتراق الأمّة. [11]

3 – إعداد الكفاءات و حسن توظيفها في ضوء السنّة النبوية – دراسة موضوعية: أطروحة دكتوراه للباحث نور الدين بن يربح، نوقشت بجامعة بغداد سنة 1426هـ/2005م.

انطلق الباحث من حالة الاستضعاف والتخلف والرّداءة الذي تعانيه أمتنا اليوم، ثم ذكر أنّ تغيير هذا الواقع يجب أن يبدأ بالإعداد الذي في مقدمته البحث عن ذوي القدرات المتميّزة من أبنائها فتحسن احتضانهم ورعايتهم، وتجعل منهم ذخيرتها لذلك اليوم. [12]

فالأمم والدول والحضارات لا يدير شأنها العوام والبسطاء، بل النّخبة والصفوة والخيار.

ثم تساءل لماذا النّخبة بالذّات؟ ليجيب: "إنّ حياتنا تكاد تتحول إلى ثغرة كبيرة، ولا يسدّها إلا المرابطون في كلّ التخصّصات، وبالتّالي فإنّ إعلان النّفير التخصصي هو النّداء الذي يبني درع الوقاية وطوق النجاة لهذه الأمة". [13]

واختار أن تكون دراسة هذا الموضوع في ضوء السنّة النبوية؛ لأنها الترجمة العملية والمدرسة الميدانية لأحكام ديننا الحنيف. [14]

ويرى الباحث أن وجه التقصير في التعامل مع السنّة هو قلّة الدراسات الموضوعية بالمقارنة مع غيرها من الدّراسات، رغم حاجة المسلمين المعاصرين لمثل هذه الدراسات. [15]

وحتى يتم تحويل السنّة إلى منهج حياة لابد من تبليغها إلى كل المواقع حياتنا، والتماس الحلول والبدائل فيها باعتبارها الملاذ الآمن لنا في عصرنا هذا.

وفي إعداد الكفاءات وحسن توظيفها تناول الباحث:

1- اعتماده صلى الله عليه وسلم رأس المال البشري في بناء الأمّة.

2- واعتماده على المركزة لإجاد القيادات الراشدة والكفاءات العالية.

3- حسنُ توظيف الكفاءاتِ. [16]

وخلَص في الأخير إلى نتائج تتناسب مع طبيعة الموضوع وحجم الدراسة وأهميتها. وذكر عددا من التوصيات أهمها:

تفعيل دور السنّة النبوية الشريفة في تربية وإعداد الأجيال وفق مناهج مستمدّة من السنّة النّبوية. [17]

سادسا - الأثر الواقعي لتلك الدراسات في المحيط الاجتماعي والأسري:

فهذه النماذج المعروضة سابقا تبرز مدى اهتمام الباحثين بمتطلبات محيطهم الاجتماعي، وسعيهم الجاد في تحسين أوضاعه والرفع من مستواه، فالأبحاث تميّزت بالدّقة في اختيار موضوع الدّراسة، والطريقة العلمية في عرضه، والاستدلال بالأدلة الثابتة .

ومع ذلك لا نلمس أيّ استفادة للمحيط الاجتماعي من النّتائج التي توصّل إليها الباحثون. وتتمثل أسباب ذلك فيما يلي:

1 - انزواء الباحثين الجامعيين بنشاطاتهم العلمية والثقافية، وعدم احتكاكهم بمحيطهم الاجتماعي، والاسمتاع إلى انشغالات ومتطلبات المجتمع.

2 – غياب طبع ونشر الأبحاث الجامعية ذات العلاقة بالمحيط الاجتماعي، وبقاؤها حبيسة رفوف المكتبات والعامّة والخاصّة.

3 – غياب الرغبة والإرادة في اشراك مثل هذه الأبحاث في حلّ كثير من المشكلات المتفاقمة.

الخاتمة:

مما سبق بيانه نخلص إلى النتائج الآتية:

1. إن المحيط الاجتماعي ميدان رحب للدراسات الشرعية عموما، والسنّة النبوية على وجه الخصوص.
2. لا بد من تفعيل البحث العلمي الهادف للمساعدة في حل مشكلات المجتمع الإسلامي، الاجتماعية، والاقتصادية، و السياسية.
3. ضرورة تحديث مخطط واسع للدراسات الاجتماعية في السنّة النبوية، وتوجيه طلاب الدراسات العليا وكيفهم بالقيام بهذه المهمة تحت إشراف متخصصين في السنة وعلومها.
4. ضرورة إحداث آليات تساعد على تفعيل البحوث العلمية في الواقع المعيش، وعدم تركها حبيسة رفوف الدوريات، كالطبع، ونشر ملخصات تلك الأبحاث في المجلات العلمية، وإحداث لقاءات علمية اجتماعية مع الباحثين، وغير ذلك.
5. تفعيل دور مخابر البحث للاضطلاع بهذا الدور الهادف، فتخصص مجموعة من فرق البحث لدراسة ظواهر اجتماعية، وإجاد الحلول المناسبة لها في السنّة النبوية.

الهوامش:

---

(1) ينظر: لمحات في منهج البحث الموضوعي. عبد الله عبد الرحيم عسيلان، ص1، 2.

(2) ينظر: كفالة الأيتام والأرامل في ضوء السنة النبوية – تخريج ودراسة -، الطالب: نبيل زياني، نوقشت بتاريخ 2003/07/20 بقسم الكتاب والسنة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة. ص:ب.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه، ص:ت.

(5) ينظر: كفالة الأيتام والأرامل في ضوء السنة النبوية – تخريج ودراسة -، ص:151 و ما بعدها.

[6] المصدر نفسه، ص:187.

[7] المصدر نفسه.

[8] ينظر: تفرق الأمة و التحذير منه في ضوء السنة النبوية –دراسة وتحقيق -، الطالبة: حدة عاشوري، نوقشت السنة الجامعية 2004/ 2005، بكلية العلوم الاجتماعية و العلوم الإسلامية، بجامعة العقيد الحاج لخضر بباتنة. ص:أ، ب.

[9] المصدر نفسه. ص: ج.

[10] المصدر نفسه. ص: د.

[11] المصدر نفسه. ص: 161، 163.

[12] ينظر: إعداد الكفاءات وحسن توظيفها في ضوء السنة النبوية –دراسة موضوعية -، الباحث: نور الدين بن يربح، نوقشت سنة 2005، بكلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد، بجامعة العقيد الحاج لخضر بباتنة. ص:5.

[13] المصدر نفسه. ص: 7.

[14] المصدر نفسه. ص: 8.

[15] المصدر نفسه.

[16] ينظر: المصدر نفسه. ص: 13، 85، 143.

[17] المصدر نفسه. ص: 198.